القومية العربية بين الشعور والعقل

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

بين(*) الصديقة الانسة نازك الملائكة والصديق الاستاذ رجاء النقاش جدال ، جدل خصيب . واول ما يجذب اليه انه جدي صادق ، يقوم به كاتبان يقدسان اللفظ ويعرفان مسؤوليته . ورغم ما تؤدي اليه المعارك الادبية عادة من غلو وامعان في استمساك الفرقاء بوجهات نظرهم ، لا ننعي في هذه المعركة الا القليل من هذه المقارعة بقصد الانتصار وحده ، وتظل السمة الغالبة على هذه المناظرة سمة القناعة الذاتية قبل الاقناع ، ومحاورة الفكر لنفسه قبل غلبته على غيره .

والحق اننا احوج ما نكون في هذه المرحلة من حياتنا الى ان نسائل قبل الكتابة ، وقبل الكتابة في موضوعات خطيرة كموضوع القومية العربية ، عن الجدوى الحقة التي ترجى مما نكتب ، وعن مبلغ قناعتنا بان ما نلقيه على الورق يصدر عن ايمان فكري عميق مدروس ، وانه لا يزيد في الاضطراب القائم حول هذه الموضوعات الهامة التي اصابها من القلق والفوضى ما أصابها .

ولا شك ان المناظرة التي نشير اليها تكوّن خطوة مفيدة في فهم القومية العربية ، وتسهم اسهاما ذا بال في طرحها طرحا واضحا . وعلى الرغم من التباعد الظاهر في وجهتي النظر ، يظل من الصحيح ، ان نحن قرأنا وراء السطور قليلا ، ان اللقاء قائم . انه قائم اولا وقبل كل شيء على ارض الحرص المشترك على جلاء الفكرة العربية جلاء يؤدي الى مزيد من قوتها وتمكنها . ومن الجميل حقا ، بل مما يحمل دلالة عميقة ، ان يبلغ الحرص على تركيز الفكرة القومية حدا يجعل المخلصين لها في عراك عميق وصراع حاد . ومثل هذه الظاهرة تنبيء دون شك عن اننا بدأنا نجتاز في حياتنا القومية مرحلة جدية جديدة وهامة : فبعد ان كان الصراع قويا بين المنتصرين للقومية العربية وبين اعدائها ، انتقل الصراع الى ما بين الدائنين بالفكرة القومية انفسهم . وهذا يعني ان شعورا عميقا اخذ يراود الطبقة المثقفة في البلاد العربية ، قوامه ان القومية العربية التي انطلقت واشتدت ، غدا يخشى عليها من داخلها اكثر مما يخشى عليها من خارجها . انه يعني الشعور بأن تفتح القومية العربية غدا مرتبطا اعمق الارتباط بالملامح الواضحة التي نهبها لها ، وبان معرفة المبدأ والنهاية ، والتساؤل الى أين المسير ، وما جوهره ، أمور غدت رأهنة ملحفة اكثر منها في اي وقت مضى .

على أن اللقاء بين الصديقين يجاوز هذا الميدان العام ، ميدان الحرص المشترك على القومية العربية وانطلاقتها . انه في الواقع قائم فيما يجاوز هذه الرغبة العامة . ومما يمتاز به هذا الجدل حقا ، أن كلا من وجهتي النظر تلمس جانبا صحيحا من جوانب الفكرة القومية ، سوى ان كلا منهما تطل من افق غير افق الاخرى . وكلمة الشاعرة الكاتبة الكبيرة الانسة نازك ، التي كانت منطلق الجدل ، تريد ان تقول اشياء لها شأنها في فهم الفكرة القومية ، غير انها لم تضعها في اطارها الذي ينبغي ان توضع فيه، فأثارت اللبس والتساؤل . وكان من حق الاستاذ رجاء ان يسائل عن قصد اوضح للفكرة التي قالتها الانسة نازك ، وهو في تساؤله هذا قد التقى بها في جوهر فكرتها ، سوى انه اعرب عن غموض القصد الذي تريده تلك الاندفاعة العاطفية الصادقة . وكان عليه ان يضع ذلك القصد في مكانه الطبيعي من الفكرة العربية ، وان يبين ان من الواجب ان يحدد ميدانه لئلا يفسر تفسيرا خاطئا .

الوجود القومي وجود حي

فالانسة نازك ارادت في اعماق ما ارادت ان تعبر عن فكرة اساسية في كل تفكير قومي ، لم تفصح عنها افصاحا صريحا ، ولكنها اطلقتها بين نيران عواطفها الثرة . تلك الفكرة هي القول بان الوجود القومي واقع حي قائم ، سابق على اكتشافنا له ، متقدم على تصورنا اياه . انها ارادت ان تبدأ من بداية كل تفكير قومي لتقرر هذه البديهية الاولى وهي ان وجود الفرد جزء لا يتجزأ من وجود امته ، وان الامة سابقة على الافراد ، وان كل فرد يغتذي من ولادته بحضارة امته وتراث قومه ، فيولد قوميا ، ويترعرع ابن امة معينة . ومجرد وجوده في مجتمع قومي معين يعني تكونه على غرار هذا المجتمع ونشوءه على تقاليد امته ومنازعها ونظرتها الى الكون والاشياء . ومن مكرور القول ان يقال ان تربية الطفل منذ ولادته تعني الاندماج في البيئة الحضارية التي ولد فيها ، وامتصاص مقومات الحياة القومية التي يعيش وسطها منذ اللحظة الاولى .

ان من المقومات الاساسية لكل تربية يتلقاها الناشيء في مجتمع معين ، ان يجد الفرد نفسه في جملة تطور

(*) كان المفروض ان يدرج هذا المقال في باب « قرأت العدد الماضي » ولكننا آثرنا ان نفرده هنا لان الكاتب اقتصر على مناقشة قضية القومية العربية ، وترك نقد سائر الابحاث المدرجة في العدد الماضي

« التحرير »

ذلك المجتمع ، وان يتجاوز الحدود الضيقة للزمان الذي يعيش فيه والمكان الذي يدرج وسطه ، ليجد نفسه في نهاية الامر ممتدا في زمان اوسع ومكان افسح ، هما زمان أمته ومكان أمته ، ومن ورائهما الزمان الانساني والمكان الانساني اللذان لا يدركهما الا من خلال أمته . انه يخرج من حاضره ليجد نفسه ، وجودا اكثر انسجاما وعمقا ، في مجموع تطور امته . انه يجد ما يدعوه الفلاسفة بالتاريخية ، نعني التعلق بالتاريخ الحالي في حياته كلها .

ان كل فرد انساني ، ليس كائنا بسيطا ، كما يظن ، وانما هو مجموعة كائنات . انه يتألف من التقاليد التي تربطه باجداده ، ومن المشاعر التي تشده الى اولئك الذين يعيشون معه في بلد واحد وضمن تراث حضاري واحد . ولا حاجة الى ان نذهب الى القول بنظرة عرقية وراثية ، كيما نؤكد بان اجدادنا حالون فينا ، يتكلمون ضمننا . فمما لا جدال فيه ان « الأنا » الحقيقي لا يتكون الا من الجماعة وفيها . وهذه الجماعة هي قبل كل شيء الامة وتراثها . ومن هنا نادى مثل اوغوست كونت ، بأن « الاجداد هم الذين كونونا على ما نحن عليه » ، ونادى مثل الشاعر « سولي برودوم » : « عرق وتربية » ، وقال مثل « باريس Barrès » « الارض والاموات » .

ان هذه الاقوال كلها ، رغم اختلاف منازعها ، تفصح عن حقيقة اساسية وهي ان الفرد ابن تربته القومية وهوائه القومي . وفي هذه التربه وحدها ينمو نموا طبيعيا سليما ، وفي ذلك الهواء وحده يتنفس تنفسا سويا . انها تبين ان الامة هي الاطار الطبيعي للانسان ، فيها تتفتح انسانيته على اكمل وجه ، وعن طريقها يجد الانسان ويجد الروابط الانسانية المثلى التي تربطه بغيره من ابناء العالم . انها تؤكد ان القومية هي المتكأ الطبيعي لكل نزعة انسانية وروحية سامية . وعندما تتراجع الحضارة القومية فمعنى ذلك تراجع الحضارة الانسانية لا محالة .

اننا ، كما يقول « بورجيه Bourget » « اجدادنا ومعلمونا واخواننا الذين يكبروننا . اننا كتبنا ولوحاتنا وتماثيلنا ... والفرد منا مثقل بارث ضخم ليس من صنعه » .

الانسة نازك انطلقت اذن من هذه الفكرة الاولى البدهية في كل تفكير قومي ، نعني القول بأن الفرد ابن امته شاء أم ابى ، وانه مغموس في الحياة القومية منذ ولادته . وبهذا المعنى فالوجود القومي وجود اصيل يفرض نفسه ، وهو اقوى من كل تزييف له . والمشاعر القومية مشاعر غنية عارمة في نفس الانسان . والفكرة القومية عندما تعمل للانبعاث القومي تستند في حقيقتها الى واقع حي ، واقع اصيل ، ولا تخلق واقعا غير موجود .

الفكرة القومية فكرة ضرورية

ومن هنا ينتج عن هذا التقرير الاول ، تقرير ثان ملازم له ، هو القول بأن الفكرة القومية ليست مجرد فكرة يختارها الانسان اختيارا ، وكان في وسعه ان يختار غيرها . انها فكرة ضرورية بالمعنى الفلسفي للكلمة ، فكرة لازبة . انها لا تتكون عن طريق الارادات الفردية ، وانما هي سابقة على هذه الارادات تجثم فوقها . والارادات الفردية حين تسير في اتجاهها الطبيعي السوي لا بد ان تجد نفسها ضمن الارادة القومية . وكل محاولة منها للخروج على هذه الارادة مغالبة للبنية الطبيعية للانسان . والفرد عندما يعي وجوده حقا ، يعي قوميته ويلفيها في هذا الوعي لوجوده . وفي اعماق القومية ضرب من القبول بجبرية مفروضة على الانسان ، ولكن من داخله لا من خارجه . وكما نقرر بان ارضا ما صالحة لزراعة الكرمة او القمح او البرتقال ، علينا ان نقرر ان هذه الامة مخلوقة لتشعر شعورا عربيا او فرنسيا او المانيا . ولعل هذا ما تعنيه الانسة نازك حين تقول بلغتها الجميلة : « ان القوت هو فضيلة الشجرة التي تنبته ، واما العروبة فهي فضيلتنا نحن ، بنفس الاسلوب » وحين تقول ايضا : « واما العروبة فهي فضيلة جبرية لا يستطيع الانسان ان ينزعها ولا ان يقاومها . انها نحن ، ولن نفقدها الا اذا فقدنا دمنا ووجودنا نفسه » . وهذا ما اكده مثل « باريس » Barrès حين قال :

مجموعة مؤلفات

الاستاذ ميخائيل نعيمه

صدر منها :	ق.ل
١ ـ كان ما كان	٢٠٠
٢ ـ اكابر	٢٠٠
٣ ـ همس الجفون	٣٠٠
٤ ـ مذكرات الارقش	٢٥٠
٥ ـ الاباء والبنون	٢٥٠
٦ ـ في مهب الريح	٣٠٠
٧ ـ الاوثان	١٢٥
٨ ـ النور والديجور	٣٠٠
٩ ـ ابعد من موسكو ومن واشنطن	٣٠٠
١٠ ـ البيادر	٣٥٠
١١ ـ لقاء	٢٥٠
١٢ ـ مرداد	٦٠٠
١٤ ـ سبعون الحلقة الاولى	٥٠٠
١٥ ـ سبعون الحلقة الثانية	٥٠٠
١٦ ـ دروب	٣٠٠
١٧ ـ جبران خليل جبران	٥٠٠

الناشر : دار صادر ـ دار بيروت

« اننا منتجات ضرورية انتجتها امتنا » ، وحين صاح : « ان أي مفهوم نكونّه عن فرنسا لا يمكن ان يكون له شأن اذا كان ضد فرنسا الواقعية ، فرنسا بلحمها ودمها » .

ومن هنا كان وراء الايمان القومي دوما جانب عاطفي هام . ففي جذور الفكرة القومية حال من الاحساس العاطفي . والعقل في هذا المجال لا يحتل الا جانبا ضئيلا في سطح حياتنا . وهو على اية حال لا ينفصل عن الحياة العاطفية ، ولا يستطيع ان يكون منتجا فعالا الا اذا انطلق اولا من هذا الوجود العاطفي الغالب .

ان ظواهر الحياة الاجتماعية ، وعلى رأسها الحياة القومية ، ليست امورا تجري وفق الاهواء والصدف ، بل هي ظواهر تخضع لقوانين ثابتة لا تتخلف . والمهمة الاولى في تطوير أي ظاهرة اجتماعية هي معرفتها حق المعرفة ، معرفة طبيعتها وقوانينها . فمثل تلك المعرفة هي التي تمكننا من التأثير فيها ، ومن تشكيل الظروف تشكيلا جديدا ملائما لتطويرها . وكل معرفة قوة ، ونحن لا نقوى على ان نحكم الطبيعة كما قال بيكون ، ما لم نطعها ، اي ما لم نعرف قوانينها .

الامة قبل القومية :

ومن هنا يستبين ان المذهب القومي الذي تدين به امة من الامم ، يعتمد اولا وقبل كل شيء على هذا الواقع الحي ، واقع الوجود القومي . فهو بهذا المعنى ليس مذهبا مصنوعا مجلوبا ، ولا نظرية تكونها من بنات افكارنا ، او « اسطورة » نخلقها كما اراد « روزنبرغ » في كتابه الشهير « اسطورة القرن العشرين » ، ان هذا المذهب يستقي جذوره من واقع حي ضروري . ونتيجة هذا ان ملامح هذا المذهب تتحدد وتتعين بهذا الواقع . ولا نقول انها تحذو حذو هذا الواقع تماما وترسمه او تعيده . بل نقول انها تبدأ منه ، فترسم ما ينبغي ان يكون من معرفة ما هو كائن .

ولهذا صح ان نصف المذهب القومي بأن ضرب من الدراسة العلمية الموضوعية لواقع الامور بغية استخلاص مقوماتها واتجاهاتها وصبواتها . ونحن ههنا امام بناء ايديولوجي نقوم به ، وانما نحن امام ملاحظات علمية نستخلصها . فللجميع نفسها قوانينها ، كما قال « غوته » في فاوست . وما نسميه باسم المذهب ، سياسيا كان او قوميا ، ليس في الواقع ، كما يقول « موراس » شيئا تستنتجه استنتاجا عقيا وانما هو استقرار ، استقرار للواقع وللصلات القائمة بين ـ الوقائع ، تلك الصلات التي يدعونها قوانين .

ومهمتنا كما يقول ايضا ، هي ان نستنتج من التجربة التاريخية للامة قوانين المجتمع السياسي الذي نريده . انها تعني ان نبحث عن الدستور المكتوب في الدستور الحي الذي يعيشه الشعب .

القومية اذن هي المذهب الذي نرسمه لحياتنا القومية . وهي بهذا المعنى شيء سابق لا لاحق على الامة . فالامة هي الموجودة اولا ، وهي التي تحدد معالم هذا المذهب .

غير ان هذا يعني ان نبدأ بالافصاح عن شيء لم يكن ضمن ميدان البحث الذي كتبته الانسة نازك ، وهو الذي بدأ منه الاستاذ رجاء . هذا الشيء هو ان المذهب القومي لا يكتفي بان يقرر بان الشيء موجود وكفى ، ولا يكفيه ان يعتمد على هذا الوجود الحي القائم ، وجود الامة .

فوجود الامة وجود يجاوز الوجود الفردي كما قلنا ، وشعور الافراد به شعور ذائع عضوي ان صح التعبير . واحتياز الشعور الفردي لهذا الوجود احتيازا واعيا أمر لا يتم الا بعد تربية وجهد . وهو يزداد قوة ومتعة كلما رقي في فهم هذا الوجود القومي وادراك مقوماته .

ولهذا كان لا بد ان نربط بين الشعور القومي الغامض وبين مبررات وجوده ، ولا بد ان نعرف هذا الشعور على حقيقة ذاته ونكشف له عن كامل كيانه . وعملنا هذا هو في الوقت نفسه تثقيف لهذا الشعور وارتفاع به من مستوى الادراك العفوي الى مستوى الادراك الواعي المرير . نعم لا بد ان نربط هذا الشعور الحي بجذوره الواقعية ، وان نمده بالمشاهدات العلمية والاستقرار الموضوعي للواقع . والمذهب القومي في نهاية الامر هو هذا الربط بين العاطفة والمنطق ، هذه الصلة الوثيقة بين الاحساس العفوي والعلم . والوعي القومي هو الشرارة التي تنبثق من لقائهما .

ان الشعور القومي ، اذا لم يؤيد بالتفكير الذي يشده الى اصوله ويكشف له عن هويته ، يظل شعورا غائما معروضا للتقلب والشك . غير ان التفكير القومي بدوره ، اذا لم نربطه باصوله الواقعية واذا لم نجعل منه استخلاصا للواقع ، الواقع الحي القائم في النفوس ، والواقع التاريخي والاجتماعي للامة ، يغدو تفكيرا طوبائيا مقتسرا . وتحقيق اللقاء بين هذا الشعور الذي يعتمد في اصله على وقائع عقلية وتجريبية ، وبين التفكير الذي لا يفصل في جوهره عن الاحساس الذي يغذيه ، هو العمل الذي يقوم به المذهب القومي .

المذهب القومي

ومعنى هذا كله ان القومية مذهب ونظرية ولا تقف عند مجرد تقرير الوجود القومي . انها لا توجد الشعور القومي دون شك ، ولا تخلقه ، ولكنها تنطلق منه لتكشفه بنور العقل وتضيئه بمصباح العلم ، وتحدد مجالات انطلاقه كما ينبغي ان تكون .

ذلك ان المذهب القومي ، كما قلنا ، يستند الى الواقع ليرقى منه الى تطويره هذا الواقع وتوجيهه . وليس هذا المذهب مجرد تسجيل لذلك الواقع . انه وعي انساني يرسم هدفا ويضع خطة ، مدركا تمام الادراك ان الهدف والخطة لا يمكن ان يبنيا من عدم ولا بد ان يستقيا امكانياتهما من المعرفة بالواقع وشروطه . ان ثمة فارقا كبيرا بين

ـ التتمة على الصفحة ٧٦ ـ

القومية العربية بين الشعور والعقل

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦ ـ

وجود الشيء وبين وعي الانسان لهذا الوجود . والوعي عملية ابداعية ، فيها خلق جديد للشيء الذي نعيه . انه يفترض دوما ان ننطلق من فهمنا للشيء وادراكنا له الى امتلاك ناصيته وتوجيهه وجهة جديدة ، نحو هدف ومثل أعلى .

هكذا يؤدي ادراكنا لوجود العرب القومي ولعمق مشاعرهم القومية ، الى ان نسير بهذه المشاعر نحو موقف فعال ، فنعبئها بالاحاسيس الروحية الخلاقة ، حين نبين لها هدفها وغايتها . وعن طريق تشقيق الوجود القومي امام اعين ابناء الامة العربية ، نجعلهم يدركون عناصر هذا الوجود الاساسية ومقوماته الموجهة له : انهم يدركون مثلا ان وجودهم القومي عبر التاريخ كان دوما وجودا ترتبط فيه المشاعر القومية بالمشاعر الانسانية ، وتنأى فيه النزعة القومية عن ان تأخذ شكل نزعة متعصبة او معادية لشعوب اخرى . او يدركون ان تفتح هذا الوجود القومي يرتبط بتحقيق مجموعة من الشروط الاقتصادية التي تحرر الفرد من اثقال اوضاعه ومن قيود حياته المادية لتجعله قادرا فعلا على الابداع والعطاء من اجل نفسه وامته والانسانية . او يدركون فوق هذا او ذاك ان وجودهم القومي السليم مرتبط بخلاصهم من الاستعمار الخارجي الى جانب الاستثمار الداخلي .

ان الفكرة القومية لا تعني مجرد الشعور بالانتساب الى امة . بل تعني فوق هذا ادراك مقومات هذا الانتساب ، اي مقومات هذه الامة . وادراك المقومات ، ليست عملية سكونية سلبية فحسب ، يكفي فيها ان نحلل الامة تحليلا اليا ، لنستخرج خصائصها ، وانما هو عملية حركية متجددة ، تعني ان ندرك الوحي العميق لحياة الامة ونظرتها العميقة الى الكون والاشياء ، اي ان ندرك من خلال واقعها صواتها ومثلها العليا ورسالتها .

وهكذا ينقلب الشعور العميق بوجود الامة الى شعور برسالتها وفلسفتها ، اي الى مذهب ونظرية . فالمذهب هو ذروة الشعور القومي حين يداخله الوعي الانساني ليحلله ويخرج من تحليله منازعه واتجاهاته . وعندما يتم مثل هذا التحليل العقلي العلمي الخصيب تلتقي ارادات الافراد بارادة الامة ، وتكون من هذا الانطباق والتلاصق قوة فعالة عنيفة .

ومن هنا كان من واجبنا في هذه المرحلة من حياتنا الا نخشى من العقل ونوره على الشعور القومي ، وان ندرك على العكس ان شرارة العقل هي التي تستطيع اخيرا ان تضيء مجاهل هذا الشعور وتبين له سبيل السلوك والعمل . وعند ذلك يغدو الشعور محملا بقوة مضاعفة ، قوته الاصلية الفطرية وقوته الجديدة التي اكتسبها عن طريق انارة العقل له . ان ذلك الشعور في حاله الفطرية اشبه بادراكنا العفوي للاشياء الخارجية ، قبل ان نحللها ونعيد بعد ذلك تركيبها . اما بعد ان نضيئه بنور العقل ، فيغدو اشبه بادراكنا التركيبي للعالم الخارجي ، ولكن بعد ان حللناه من قبل ووعينا اجزاءه ومقوماته . ان الشعور القومي ، حين يعرف العقل والعلم على وجوده ومقوماته واتجاهاته ، لا يفقد صفته العاطفية ، الصارمة كما قد يظن ، بل يكتسب سمات عاطفية جديدة اعمق واوثق لانها واعية مدركة ، ولانها اكتشفت خاصة الهدف والغاية عن طريق معرفتها لذاتها .

ان العقل لم يكن في يوم من الايام خطرا على العاطفة ، وليس من الصحيح انه اداة تشكيك واحجام . انه يلتقي في ذروته مع تكون عاطفة جديدة وصوفية جديدة . ولكن هذا لا يتم الا عندما يقوم بوظيفته حق القيام ويبلغ غايته حقا .

وأيا كان الامر ، فالعقل والوعي العقلي ملكة الانسان العليا ، ولا يجوز ان نحجبه عنها ، ولا يجوز ان تمنعنا بعض مخاطر الطريق من اقتحام ميدانها حتى النهاية .

ومثل هذا الموقف ضروري دوما دون شك ، اذا ادركنا ان الوعي خير ما يرقى بالانسان نحو المصاف العليا

قريبا جدا تصدر

الطبعة الثانية ـ مزيدة ومنقحة ـ من كتاب

محنة الادب في العراق

(الكتاب الذي احدث ضجة كبرى في اوساط القاهرة الادبية ونفدت طبعته الاولى في شهر واحد)

بقلم

محيي الدين اسماعيل وهلال ناجي

فترقبوه

في انسانيته . غير انه ضروري خاصة في عصرنا هذا ، وهو لغة التخاطب الاولى فيه . وليس من الجائز ان نرضى للقومية العربية بوجود عفوي شعوري خالص ، في عصر ظهرت فيه المذاهب المختلفة ، وقام الصراع بين المذاهب الفكرية والسياسية كأعنف ما يكون . والقومية العربية ينبغي ان تكون في نهاية الامر مذهبا قادرا على ان يضاهي المذاهب الاخرى ويحدثها بلغتها ويدلي دلوه بينها — وليس مثل هذا المطلب بالعسير كما قد يخيل ، لا سيما بعد ان استبان الكثير من قسمات هذا المذهب القومي العربي واخذ الوعي يفتح جنباته يوما بعد يوم .

على ان البواعث التي قد تدعونا احيانا الى التخوف من البحث العقلي في القومية العربية ، هي في الواقع قمينة بأن تدعونا الى مزيد منه . ان مما يغضب احيانا تلك الشكوك الفكرية التي اقامها فريق من المثقفين في وجه الفكرة العربية . غير ان هذه الشكوك ، التي تكونت بنتيجة أفكار مدسوسة من اعداء الامة العربية ، أو بنتيجة انحرافات عقلية لدى مثيريها ، او بنتيجة المرحلة الزمنية التي تمر بها احياء العرب ، لا يمكن ان تجلى الا عن طريق مزيد من الفكر والوعي ، ولئن كانت غير قادرة على ان تزيل الوجود العربي كوجود ، فهي مع ذلك قادرة على ان تخلق الركود والفوضى في هذا الوجود . وقد قلنا ونقول ان وجود الشيء يتوقف من الوجهة العملية (من وجهة السلوك) على مبلغ وعينا له وادراكنا لمقوماته ، على مبلغ اللقاء بين ذاتنا الظاهرة المكتسبة وذاتنا العميقة التي تمت في جذورها الى ذلك الوجود . والوجود العربي كما قلنا ونقول يصبح وجودا منطلقا متجها ذا غاية عندما نكشف عنه وعن مقوماته ومنازعه الممكنة والواجبة . وهو على العكس يظل وجودا راكدا متثاقلا غير ذي وجهة اذا لم نجله جلاء يقوى على ان ينضو عنه الاقنعة والاغشية ويبدد الشكوك والقلق .

وكلنا يعلم اثر الافكار المنحرفة المشككة التي اصابت الفكرة العربية ، ويعلم ان هذا الاثر لم يقف عند حدود محاولات المستعمرين ، وانما جاوزها الى ابناء الامة العربية انفسهم ، فاذا بافكار خاطئة ضالة تعشش في رؤوس طبقة من ابناء الامة العربية وتأخذ سبيلها احيانا الى الانتشار . ولا يجوز ان نكتفي بان نقرر خطأ الفكرة ، وبأن نؤكد بانها لن تقوى على مغالبة طبائع الاشياء وحقيقة الوجود القومي . فالفكرة فكرة شئنا ام ابينا ، ولا يجوز ان نعدها ضالة او مجرمة ما لم نجبهها بفكرة اخرى .

لقد عددنا في كتابنا « التربية القومية » (١) بعض الافكار الخاطئة التي غزت فكرة القومية عامة والفكرة القومية العربية خاصة ، ولا حاجة الان الى الحديث عنها من جديد . وحسبنا ان نذكر ان هذه الافكار عبء على الحركة القومية ، ومعطلة لسلوكها وانطلاقها ، اذا لم نصهرها ضمن وعي اعم واسلم . وينبغي ان ندرك دوما ان وجود الشيء لا يكفي لانقلابه الى سلوك وحركة ، وان الوجود الواعي المفكر هو وحده الذي ينقلب الى سلوك واسلوب في الحياة . ووجود الشعور القومي ، وجود الامة العربية ، يظل وجودا ساكنا ويظل معروضا للنكوص والضعف ، ان لم يغذه وعي مستمر متجدد ، يربطه بالزمن وبالتجربة القومية والعالمية .

ومن هنا كان العمل القومي نضالا متصلا وكفاحا يوميا . وهذا الكفاح لا يعني مجرد العمل على اذكاء الشعور القومي وتحريضه ، بل يعني رسم طريق علمية واضحة ينطلق فيها هذا الشعور ويتخذ ضمنها اطارا متينا لسيره . وبدون هذا الاطار ، يتعرض الشعور القومي نفسه للضعف والانحراف احيانا . وهذا الضعف والانحراف لا يقعان لدى لطبقة المثقفة كما قد يظن ، بل يقعان في مستوى الشعور القومي العام لدى ابناء الامة كلها . ذلك ان الشعور القومي ليس شعورا معلقا في الفراغ ، وانما هو شعور ذو محتوى ومضمون ، وهو ينقلب الى اجترار فارغ اذا فقد ذلك المحتوى والمضمون وضل الهوى التي يعمل

(١) التربية القومية ، منشورات دار الاداب ببيروت ١٩٦٠

صدر عن منشورات « اوراق لبنانية »

مذكرات الشيخ بشارة خليل الخوري

رئيس الجمهورية اللبنانية سابقا

حقائق لبنانية

الجزء الاول — الثمن ١٠ ل.ل.

الموزع الوحيد : مكتبات انطوان

بهديها . أن النضال في سبيل تحقيق مجتمع اشتراكي هو مثلا من محتويات هذا الشعور . ومن شأن هذا النضال ان يجعل الشعور القومي اكثر حياة وقوة ، حين يبين له ان تحقيق الاشتراكية هو الوسيلة المثلى لتفتيح الحياة القومية والابداع القومي .

اننا لا نستطيع ان ندفع الشعب لعمل دائم متصل ، الا عن طريق المبادىء . والمبادىء المنسجمة المنظومة في كل واضح معقول ، هي التي تحرك جماهير الشعب وهي الاطار المشخص لمشاعرهم القومية المجردة . وبمقدار ما تكون المبادىء واضحة مشرقة في النفرس يكون الشعور معها وتكون العاطفة في قلبها .

خاتمة

ان الذى اردنا ان نقرره اذن هو ان الوجود القومي وجود قائم حي . ولكن الفكر والوعي ابرز مظاهر الحياة . ولا يكتمل وجود الشعور القومي وجودا حيا حقا اذا لم يكشف عنه الفكر ويدله على حقيقته ومنازعه .

تلك حقيقة بدهية . ونحن على يقين ان كلا من الانسة نازك والاستاذ رجاء يوافق عليها . بل ان كلا منهما ما اراد ان يقرر سواها . سوى ان الانسة نازك ارادت ان تزيد في ايضاح الجانب لاول منها ، نعني كون الفكرة القوميه فكرة حيه قائمة ، تجاه بعض المحاولات التي يذهب بها التشكيك الى حد انكارها ، وتجاه بعض البحوث التي تنساها ولا تبدأ منها . اما الاستاذ رجاء فقد اراد ان يمعن في اكمال هذا الجانب الاول عن طريق بيان تتمته الطبيعية، نعني ضرورة الادراك العقلي الواعي لهذا الوجود الحي ادراكا يهبه وحده معناه واتجاهه ونجعه . ولا شك ان الاخذ باحد الجانبين دون الاخر خطأ وضلال . ولا شك ان الجمع بينهما في كل واحد هو الموقف السليم . ومثل هذا الموقف السليم نجده في اقوال الانسة نازك كما نجده في اقوال الاستاذ رجاء :

فالانسة نازك تؤكد انها تبحث في القومية العربية من حيث وجودها الحي في النفوس ، وان عنوان مقالها « القومية والحياة » وانها تتحدث عن العروبة « باعتبارها العاطفي والانساني لا باعتبارها الاقتصادي والسياسي » . وتعيد كره بعد كره ان بحثها لم يدر الا حول وجود العاطفة القومية ومبرراتها التي تجعلها ضرورية ، وان كانت تندفع من وراء هذا الى بعض المبالغات التي يقصد منها مزيد من الدفاع عما تريد .

اما الاستاذ رجاء فيسير في بحثه سيرا منطقيا ، فلا ينكر اصالة الشعور القومي ولكنه ينكر ان يكون نهاية المطاف في العمل القومي ، ومن حقه ان يقف وقفة خاصة عند قيمة التوضيح الفكري للقومية العربية ، وان ينادي بضرورة الربط بين الفكرة القومية والافكار العلمية . سوى انه لا يشير الى ما في فكرة الانسة نازك من جانب خصب غني ، جدير بأن يوضح ويشرح ، ويخشى وهو على حق الا يدرك القاريء منها الا الجانب الخيالي .

ولا شك ان مثل هذه المعركة الفكرية تحسن الى الفكرة القومية، اذ تساعد على جلائها، والكشف عن بعض صفاتها، عن طريق البحث المتمذهب الذي من شأنه دوما ان يساعد على الجلاء والوضوح وان ييسر الوصول الى رأي منصف غير مسرف ، يجمع بين الاضداد جمعا وثيقا ويخرج منها بمركب صحيح . والمعركة حول هذا الموضوع بالذات قديمة سواء في العالم الغربي او في عالمنا العربي ، ولعل هذه المعركة الاخيرة ثمرة ناضجة لها ، لخصت في عنف وحرارة مختلف جوانبها ، وساعدت على الكشف عن حقائق كثيرة ، اذ قيض لها ان يسهم فيها كاتبان قويان صادقان هيىء كل منهما لان يمثل واحدة من وجهتي النظر اعنف تمثيل .

دمشق — عبدالله عبد الدائم